(١) وليم برادفورد : عن مزارع بلا يموث

بقلم : نورمان س . جرابو

من الطبيعى بالنسبة لأمة ولدت بعد ثورة ناجحة ومستمرة أن تحتفى أولاً بأبطالها ، ثم تقوم بتخليدهم فيما بعد . هل هناك غرابة إذن فى أن يتتبع الأمريكيون مثلهم العليا ابتداء من فترة الثورة الأمريكية فى أواخر القرن الثامن عشر؟ أو هل يتحتم عليهم الاستمرار فى دراسة وكشف الكتابات التى خلفتها تلك الفترة الحاسمة فى تكوين الأمة ؟ نجد بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون وجيمس ماديسون وألكسندر هاميلتون وجورج واشنطن وجون آدامز رجال دولة ورجالا لهم شأنهم : فقد قاموا ببناء أمة جديدة وهندستها . لم يضعوا فقط دستور الأسلوب الجديد فى الحياة بل وضعوا أيضاً أحلامهم فى كلمات ، كما وضعوها موضع التنفيذ .

أما عن المثل العليا التى تجسدت فيهم وقاموا بتعليمها للأجيال - مثل حكومة القوانين لا حكومة الأشخاص . والتخلص من كل أشكال الطغيان ، ومزايا المنافسة فى حدود العلاقات الإنسانية سواء على المستوى السياسى أو الاقتصادى - فهذه المثل العليا قد يصعب الإحساس المباشر بها فى الحياة الأمريكية المعاصرة ؛ كما صيغت أصلاً ، لكن سيطرتها على الشخصية الأمريكية مازالت مستمرة وراسخة : لقد ساعدت على خلق الصورة التى يبرزها الأمريكيون للعالم ؛ كما يبرزونها لأنفسهم ؛ هذه الصورة مزيج من الصلابة ، والتفكير العملى ، والمنافسة ، والثراء ، والخيرية ، والحنو الإنسانى (إن أمكن ذلك) . أما النجاح فيأتى على قمة

هذه الملامح لدرجة مثيرة للأعصاب فى أغلب الأحيان !

هناك جانب آخر من الشخصية الأمريكية ، جانب دفين مثل النواة داخل ثمرة الخوخ ، وربما لايقل عنها صلابة وصموداً . ويبدو أنه من السهل على غير الأمريكيين أن يتتبعوا هذا الجانب أفضل من الأمريكيين أنفسهم . وسواء كان انطباعهم مرتبطاً بالإثارة أو الاشمئزاز أو بمجرد الدهشة – فهم يسجلون الكبرياء والرضا عن النفس اللذين عُرِف بهما الأمريكيون . إنهما ليس الفخر والقناعة بالنجاح المادى ، بل هما إحساس بالتعالى الأخلاقى الذى يكمن خلف النجاح ويبرره . ربما تجاهل المرء هذا الجانب من الشخصية الأمريكية ، أو ربما مدحه أو ذمه ، لكن يظل – وغالبا فى اللاوعى – قوة متحكمة ومشكلة للشخصية الأمريكية . إنها قوة وليست مجرد خاصية بحيث تبرز فى كل شىء ابتداء من الغزو الأمريكى للأراضى الغربية فى القرن التاسع عشر حتى خطابات جون ف . كينيدى السياسية حول الحدود الجديدة والتى تنادى بأن الأمريكيين يشكلون أمة غير عادية ، على عاتقها مهمة تاريخية عظيمة ، ومقدر لها أن تحقق أجمل الأحلام التى راودت البشرية !

لكن هذه الفكرة لا تنتمى إلى قادة ثورتنا ، إنها تنتمى أكثر إلى القرن السابق لهم حين نجد التعبير الكامل والفصيح عنها فى واحد من أكثر الوثائق غرابة وإثارة فى تاريخ الفكر الأمريكى . إنها كتاب « عن مزارع بلايموث » لوليم برادفورد . لا يكمن وجه الغرابة فى التاريخ العجيب الذى سجله فحسب ، بل فى عدم إمكان نجاحه ككتاب تاريخ . يرجع هذا إلى كونه مؤرخاً معاصراً يكتب من داخل حدود عصره . ومع ذلك فقد نجح ، لأن سرده التاريخى ظل المرجع الأساس لتلك الفترة لمدة ثلاثة قرون متتالية ، وهذه ظاهرة من الندرة بمكان !

يبدو عدم إمكان النجاح أيضاً فى أنه فرض على نفسه تجسيد مبادئ تلك الفترة وقيمها بدقة لدرجة أنه منحها تلك القوة الأسطورية التى ترسبت فى ضمير الأمة ووجدانها .

أضف إلى ذلك أنه كان مجرد صبى ربى علم نفسه بنفسه ، ثم نفى من موطنه على حد قوله إلى « برية مهجورة مرعبة » حيث شاءت الصدف أن يصبح زعيماً لحفنة من المنبوذين اجتماعيًّا ، كل هذا يجعل من إمكان النجاح استحالة ، ومع ذلك استطاع أن يجعل من كتابه قطعة من وجدان الأمة !

ولد وليم برادفورد فى يوركشاير بإنجلترا عام ١٥٩٠ حيث تربى فى قرية أوسترفيلد[١]

الصغيرة . فى صباه المبكر تأثر إلى حد كبير بالعظات التى كان يلقيها أحد التطهريين الراديكاليين فى قرية سكروبى المجاورة . وفى عام ١٦٠٨ هرب من غضب سلطات الكهنوت وانضم إلى جماعة التطهريين الهاربين إلى الأراضى الواطئة . قضى بعض الوقت فى أمستردام ، ثم أمضى فترة أطول فى لايدن . انضم برادفورد إلى حركة الكفاح من أجل الحفاظ على المبادئ الدينية النقية من الثقافة الغربية المدسوسة عليها . وقد نجح فى هذا المجال إلى حد لا بأس به . اشتغل بتجارة الأنسجة ، وبالاعتماد على ميراث حصل عليه من إنجلترا استطاع أن يشترى منزلاً وأن يتزوج .

فى عام ١٦١٧ أصبح من الواضح أن الإقامة المستقرة فى هولندا أصبحت مستحيلة بالنسبة لهذه الجماعة عندما بلغت الهدنة الطويلة نهايتها : فقد بدأ كل من الهولنديين والإنجليز فى الإحساس بالخوف من اندلاع الحرب ، وخاصة عندما كشفت المجادلات العقائدية عن المبادئ الدينية المختلفة التى يعتنقها أتباع كالفن من الإنجليز الفارين بعيداً عن بلادهم . ساعد هذا على تأكيد الفوارق بينهم وبين جيرانهم مما ضيق الخناق على جماعتهم وخاصة أن كبار السن منهم كانوا قد مرضوا أو ماتوا بسبب العمل الشاق أو الفقر على حين أن الأجيال الجديدة نشأت لتكتسب لغة أجنبية ، وكذلك العادات والخطايا . لم يكن أمامهم أى اختيار إلا أن ينفصلوا عن هذه الظروف الطاغية . وبمنتهى الاعتماد على أنفسهم وبالمساعدة المادية من إنجلترا بدءوا فى تجهيز سفينتين «سبيدويل» و «ماى فلاور» لكى يعبروا بهما المحيط إلى ذلك العالم الجديد الذى لا يعرفون عنه إلا القليل ، ويطلقون عليه اسم أمريكا .

لم يكن الانفصال أو الانعزال صفة جديدة لهؤلاء القوم ، بل أصبح المبدأ الرئيسى بينهم وكان السبب – إلى حد كبير – فى السلوك الذى اتبعوه والصعاب التى قابلوها . كانوا يمثلون منتهى الآراء المتطرفة بين الإنجليز البروتستانت الذين آمنوا بأن الإصلاحات الكنسية منذ عام ١٥٣٠ لم تتقدم بالسرعة المطلوبة ، ولم تصل إلى المدى المرغوب . . كان مثلهم الأعلى يكمن فيما افترضوه من الوضع الذى ساد الكنائس المسيحية البدائية فى القرون الثلاثة التى تلت المسيح . كانوا جماعات دينية مستقلة تؤمن بأن الله قد حل فى قلوبهم بكل رحمته وخلاصه من خلال العلامات التى اختبروها بأنفسهم . هذه الجماعة لا تتكون فى نظرهم إلا بالاعتماد على تناول الأسرار المقدسة معاً ، أما من يتناول هذه الأسرار مع الآخرين خارج الجماعة فسيفسد

هذا نقاء عبادة الله ، وربما لوث هذا كل المقدسات الحقيقية .

وبعد عام ١٦٠٠ نادى هؤلاء التطهريون بصورة متزايدة بأنهم لا يستطيعون ممارسة طقوس العبادة فى الكنيسة الإنجليزية ، بل يرفضون الزعامة الروحية للملك . وبرفضهم أداء الواجبات الروحية أو الزمنية للكنيسة المرتبطة بالدولة فإنهم خرقوا كلاً من القانون الكنسى والقانون المدنى ، وقد حوكموا على فعلتهم تلك . وقالوا : إنهم عوقبوا بالفعل .

وبالإضافة إلى ذلك فإن استمرارهم فى التأكيد العلنى بأن كنيسة إنجلترا ليست الكنيسة الحقيقية ، وبإعلان انفصالهم عنها لم يشعل هذا غضب السلطات ضدهم فحسب ، بل غضب كل الذين أحسوا بالمهانة الروحية من جراء هذا الإعلان .

هنا تكمن جذور إحساس الأمريكيين بالتفرد والخصوصية من خلال الإيمان بكل قيم الحق النابعة من صلتهم المباشرة بالله ، وهو إيمان لا يحتاج فى نظرهم إلى أى براهين ملموسة .

ولا غرو فقد قوبلوا بالخداع وسوء الطالع فى المفاوضات التى قاموا بها من أجل رحلتهم البحرية . ولا غرو أيضاً فى أنهم ظلوا على شجاعتهم وإصرارهم من أجل إتمامها .

فى نوفمبر عام ١٦٢٠ وبعد خمسة وستين يوماً شاقاً فى البحر وقف اثنان بعد مائة مسافر فقط على سطح السفينة استعداداً للرسو فى كيب كود فى نيو إنجلاند ، وقف الرجال والنساء والأطفال ورجال الدين والأجراء الغرباء[٢] يحملقون بنظرات ممزوجة بالارتياح والرعب إلى الساحل الكئيب البارد . كانت أول إقامة دائمة فى التاريخ المعاصر للولايات المتحدة . فى السنة التالية قضى الموت على نصف عددهم ؛ وكان برادفورد قد بلغ الحادية والثلاثين من عمره ، وانتخب حاكماً للبقية الباقية منهم . وهو المنصب الذى ظل يحتله ثلاثاً وثلاثين سنة متصلة مع بعض فترات عرضية من الراحة والاستجمام .

وإذا كان هؤلاء الحجاج – كما أطلق عليهم برادفورد – قد بدءوا هذه البداية المأسوية فإنه من المحتمل ألا تسوء الأمور عن هذا الحد : أى يمكن أن تتحسن ، لكن السنوات العشر التالية لم تشهد فقط تحسناً ، بل صعوبات جمة أيضاً.تمثلت هذه الصعوبات فى السأم الذى أصاب مؤيدى الحجاج فى كل إنجلترا وهولندا ، وأثر من ثم على مساعداتهم ، كما تمثلت فى خيانة وغباء الوكلاء الذين يقيمون على تصريف مختلف الأمور : فى المحصولات الفاسدة ، وإشعال الحرائق ، والزلازل ، والزوار الهاربين من القانون ، وأرباح الربا الفاحش على المبالغ المقترضة ، وتهديدات الهنود ، وهجمات التجار المارقين ، والموظفين الذين لا يقيمون للأخلاق

وزناً ! كل هذا ضاعف من الصعوبات الطبيعية التى تمثلت فى مجموعة قليلة من البشر يعيشون على مدى شاسع يبلغ ثلاثة آلاف ميلٍ من البرارى فى اتجاه واحد يقابله الامتداد نفسه للمحيط فى الاتجاه الآخر .

وبرغم هذه الصعوبات استطاعت المستعمرة الصغيرة فى نيو بلايموث أن تقف على قدميها فى عام ١٦٣٠ ، وأن تظهر كل الأدلة على النجاح والازدهار : فقد وضع ميثاق احترمه الجميع ، وأزيحت الديون الضخمة ، واستقرت الأوضاع الاقتصادية نسبياً ، وجاءت الأخبار عن هجرات ضخمة للتطهريين تحت قيادة جون وينثروب وصلت بالفعل إلى خليج ماساتشوستس الذى لا يبعد عنهم بأكثر من خمسين ميلاً .

هكذا أثبتت بلايموث وجودها الراسخ بحيث بدأت تتطلع بارتياح إلى مستقبل مزدهر ومفيد لأنه بينما تميزت مستعمرة خليج ماساتشوستس بالتنظيم الدقيق والتمويل المستقر – استطاعت بلايموث أن تقدم لها الميزة التى أسماها برادفورد « بالتجربة الرائدة الخطيرة » ، لكن هذا الحدث بالنسبة لبرادفورد لم يولد فى نفسه آمالاً عظاماً فى المستقبل . بل يبدو أنه أحس أن محاولات الهجرة قد آن لها أن تنتهى . والدليل على ذلك أنه جعل من تلك السنة مناسبة لكى يكتب فيها مذكراته ، وبمنتهى الحرص قام بتجميع كل الوثائق فى تسلسل سردى منظم لكن يبدو أن إحساسه الدفين كان يتنبأ بالمستقبل عندما قام بتسجيل المذكرات وجمع الوثائق ، إذ إن السنوات العشر التالية شهدت موجات من المهاجرين الإنجليز ؛ كان معظمهم من التطهريين ، لكنهم لم يكونوا انفصاليين . وتضخم سكان خليج ماساتشوستس لدرجة أن مستعمرتهم ابتلعت فى النهاية نيوبلايموث[٣] .

لم تكن الكتابة عبئاً جديداً تماماً على برادفورد ، فإن وصفه لعملية الإقامة نفسها فى عام ١٦٢٠ الذى طبع فى إنجلترا عام ١٦٢٢[٤] ، كان من ضمن واجباته كحاكم : كان عليه أن يصف للمستثمرين الإنجليز الصعوبات والنجاحات التى صادفتها مزارع بلايموث ؛ كما كان عليه أن يدافع عن سياسة المستعمرة وتصرفاتها ضد سلسلة من الهجمات المتنوعة . لقد علمته التجربة ضرورة الاحتفاظ بتقارير دقيقة ومحددة لأن الفشل فى هذا المهمة لم يكن يعنى سوى الخسائر الفادحة ، لكن واجبه العملى لم يكن مسئولاً سوى مسئولية جزئية عن حرصه الدقيق فى مثل هذه الأمور .

كان برادفورد رجلاً متديناً بعمق ، مؤمناً بأن الله قد اختاره لقيادة عشيرته المفضلة ، كان

يدرك أنه فى المستقبل الباهر القادم يوماً ما – سيحكم الآخرون على خدماته ؛ لذلك حرص على أن تواجه تقاريره وكتاباته الروحية فحصاً على مستواها الروحى نفسه .

ومثل سكان نيو إنجلاند الذين أصبح من العسير حصرهم من بعده ، والذين حرصوا على تسجيل حياتهم فى مذكرات ويوميات وكراسات وسير ذاتية وسير للآخرين – كتب برادفورد مذكراته بأسلوب مباشر وسلس بحيث ضرب لهم المثل الذى يمكن أن يحذوا حذوه .

وعلى الرغم من انشغاله بالشئون التجارية والدينية – فإنه أدرك أن تجربة قومه فى البرية كانت هامة بالنسبة لمجرى الأحداث ، وأن دلالتها التاريخية الضخمة كانت فى حاجة إلى الذيوع والانتشار ، وأنه كان فى أفضل موقع يمكن أن يحكى منه القصة .

وباختصار فإن وليم برادفورد قد آلى على نفسه بوعى كامل أن يسجل التاريخ لا أن يقوم بمجرد المحافظة على الوثائق والمذكرات .

وبمنتهى التواضع وإنكار الذات أعلن برادفورد مضمونه فى العنوان البسيط «عن مزارع بلايموث» ، ثم حدد تحته أهدافه بمنتهى الأمانة والوقار والصراحة عندما قال :

«إنه أولاً عن الموقف والدوافع التى أدت إليه ، وهو الذى يعنينى أن أحكى أسراره . لذلك يجب أن أبدأ من الجذور الأولى ، وكيف ازدهرت فيما بعد . سأشرح الأمور بأسلوب حرصت على أن يكون فى منتهى البساطة والوضوح . فهدفى الوحيد أن أصل إلى جوهر الحقيقة فى كل ما أسرده ، على الأقل بالقدر الذى يمكننى حكمى المتواضع من أن أحققه[٥] . »

كان إحساسه بأن الحقيقة ذات جوهر بسيط – مهماً جداً ؛ لأنه ساعده على إيجاد مفهوم محدد للتاريخ ومرتبط فى الوقت نفسه بمعنى الإيمان عنده . لم يكن هذا الإحساس غريباً على برادفورد ؛ كما أوضح بالتفصيل فى الفصل الأول من كتابه . إن التاريخ عنده صادق وحقيقى إذا تجلت فيه إرادة الله العليا من خلال أفعال الرجال وتصرفاتهم.وكل التسلسل الزمنى ليس سوى التقدم نحو هدف مسبق يكمن فى المجال الروحى واللازمنى ، وهو الهدف الذى يسعى إليه كل إنسان بل كل الجنس البشرى مضافاً إليه الطبيعة . إنه موقف كامل وتام وغير قابل للتغيير ، لكن مفهوم التاريخ كقوة تقدمية أو حج للبشر إلى الدولة المقدسة قد تعقد بسبب مفهوم الصراع الذى خبره الحجاج عندما منعتهم من الوصول إلى هدفهم العداوات التى لا تحصى سواء كانت طبيعية أو غير ذلك . فإذا كان التاريخ الحقيقى للإنسان بسيطاً فإنه لم يكن واضحاً دائماً .

لكن فى الوقت الذى انتهى فيه برادفورد من كتابه – كان المؤرخون قد رسموا بوضوح الخريطة التى تحدد الطريق من عالم البؤس والشقاء إلى سكنى السماء حيث الخير والحق ؛ وكان الإنجيل نفسه من ضمن هذه الخرائط ؛ كذلك كانت الدراسات التاريخية عن الكنيسة المسيحية الأولى والتى كتبها أتباع مذهب سقراط وإيزبيوس . وكان برادفورد مطلعاً على كل هذه الكتابات[٦] . لكن جون فوكس كان أوضح مرشد لبرادفورد ؛ فقد كشف كتابه « الأعمال والآثار » عام ١٥٦٣ فى ومضات رائعة الصراعات التى خاضتها حقيقة الله البسيطة فى عالم يسوده الفساد والاضطراب .

قسم فوكس تاريخ العصر المسيحى ست مراحل كبيرة تتكون كل مرحلة منها من ثلثمائة سنة . كانت المرحلة الأولى بمثابة فترة النقاء البدائى متبوعة بثلاثة قرون من الانتصار عندما انتشرت المسيحية فى عالم يكن لها العداء . وكانت الثالثة هى المرحلة العظيمة التى شهدت تطور المتاعب الداخلية إلى نظام الرهبانية ، ثم المرحلة الرابعة من عام ٩٠٠ إلى ١٢٠٠ بعد الميلاد والتى شهدت انتصار المبادئ المضادة للمسيحية الحق من خلال سيادة كنيسة روما . يصف فوكس هذه المرحلة الأخيرة بأنها كانت الحقبة المظلمة والكئيبة . ثم تبعتها الفترة الحرجة من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ ، وهى المرحلة التى شهدت فى نهايتها الإصلاح البروتستانتى الكبير . وهذه كانت بمثابة فاتحة لفترة انتصارات أخرى أعظم بالنسبة لفوكس ، وهى مرحلة استمرت حتى أيام برادفورد ، واعتبرها فوكس مرحلة نهائية للمحاولات التجريبية وآلام المخاض وهو الاعتقاد الذى آمن به نفسه برادفورد .

ولمرات عدة متتالية نجد الكلمات – المتاعب والمحاولات وآلام المخاض والمصاعب والأخطار – تحتل الفصول الافتتاحية من كتاب برادفورد ؛ حتى فى وصفه للخلفية العامة التى واكبت مخاطرة الحجاج تتكرر هذه الكلمات عندما يسرد ألوان العقاب التى نزلت بالإنجليز ثم حياتهم بالمنفى فى هولندا ، والتجهيزات للرحلة وغيرها من المراحل التى سبقت رسو الجماعة المنهكة فى نيو إنجلاند ، كما يشهد برادفورد بأمثلة من تاريخ السابقين الذين جربوا العناء والشقاء مثل الفيلسوف سينيكا الذى برع فى تحمل الألم دون شكوى وذلك عندما عاش تحت رحمة البحر وعايش الرعب منه ! ومثل القديس بولس الذى تحطمت سفينته بين البرابرة ! ومثل المغامرين الإسبان فى القرن السابق لهم عندما ماتوا جوعا فى كشفهم لجزر الهند الغربية ! وحتى مثل بنى إسرائيل تحت قيادة موسى ، وهم الذين أغرم التطهريون بمقارنة أنفسهم بهم

عندما هاموا على وجوههم فى البرية بحثاً عن خروف الفصح الذى يرمز إلى بداية انطلاقهم إلى أرض المعاد !

كان برادفورد دائم التأكيد على أن أشهر الآلام والمشاق التى عرفها الإنسان تعد تافهة إذا ما قورنت بتلك التى تحملتها هذه المجموعة المختارة من الإنجليز !

لقد كان كل ما فعله سينيكا أنه أبحر لعدة أميال قليلة بطول شواطئ إيطاليا على حين صارع الحجاج لجج البحر الكبير شهوراً .

أما عن برابرة القديس بولس فقد أظهروا له ولمرافقيه قدراً لا يمكن إنكاره من العطف الذى أزال همومهم على حين كان هنود نيوإنجلاند على أهبة الاستعداد لإطلاق الأسهم فى كل اتجاه !

أما عن الإسرائيليين فقد وجدوا الفصح وأرض المعاد على حين نظر الحجاج حولهم فلم يجدوا شيئاً يخفف عنهم أو يرضيهم ! هل مجد الشهيد بيتر الإسبان عندما قال : إنه لم يكن فى استطاعة أى كائن حى أن يتحمل ما تحمله هؤلاء المغامرون الذين عاشوا على أقل من الكفاف الذى لم يملكوا غيره خمسة أيام ؟ لقد عاش الحجاج على أقل من هذا جميعاً وأحياناً شهرين أو ثلاثة !

لعله من السهل إدراك السبب وراء هذا التأكيد المستمر على المحاولات المستميتة وآلام المخاض التى تحدد بداية العصور « الحديثة » : فمن ناحية نجد برادفورد متجاوباً بطريقة غريزية مع تحليل جون فوكس ومستغلا لكل ما جاء به . وقبل ميلاد برادفورد بتسعة عشر عاما أعلن المجمع الإنجليكانى أنه من الضرورى وضع نسخة من كتاب فوكس العظيم « كتاب الشهداء » بجوار كل إنجيل فى أية كتدرائية ، بل يتحتم على كل من يعمل فى السلك الكهنوتى أن يحتفظ بنسخة منه فى منزله . [٧] .

ساعدت دراسات فوكس التحليلية فى نشر الفكر البروتستانتى الإنجليزى ، ونالت من السلطة ما يقترب من قوة الأناجيل . ويبدو أن تأكيد برادفورد لهذه الفكرة كان ضمن استراتيجيته الأدبية الواعية : لقد ركز على مدى الضعف والضآلة فى مخاطرة الحجاج بالنسبة للمعاناة التى مروا بها ، وذلك بهدف تجسيد معنى إنجازهم ودلالته . إن هنرى الخامس عند شكسبير يعبر عن هذا الإحساس فى أعقاب معركة آجينكورت كردٍّ على الرغبة العامة التى تمنت للجيش الإنجليزى أن يكون أكثر عدداً . لقد قال : « لا » :

إذا كان مقدراً لنا أن نموت . . فإنه الآن
من أجل ألا تضيع بلدنا ! وإذا قدرت لنا الحياة
فالأقل من الرجال – الأعظم فى اقتسام الشرف !
إنها إرادة الله . . أرجوك وأتوسل إليك لا نريد رجلا زيادة ![٨١]

على أية حال فإن برادفورد يغير اتجاه التأكيد عن قصد ، ويعلق على حال جماعته الفقيرة المنهكة الضائعة المنقسمة على ذاتها بقوله : « لقد أراد الله – جلت مشيئته – أن يجعل من هذه الفئة القليلة عدداً فئة ضخمة معنى ؛ لكى تقوم بالعمل العظيم الذى أراده ! » (ص ٥٣) . فإذا كان الوضع هكذا بالنسبة لبرادفورد فلابد أنه لم يتخلص من عنصر الكبرياء القومى الذى عرف به الإنجليز والذى يقترب كثيرا من كبرياء هنرى الخامس ! إن هذه الفكرة تنضوى تحت المفهوم الأكثر شمولا والذى يقول : إن الله يستخدم أحياناً أكثر الناس تواضعاً ، بل ضعة – وذلك على غير المتوقع – كأدوات فى تحقيق عمله المجيد !

يوحى برادفورد بأنه طبقاً لكل التوقعات العقلانية فإن مخاطرة الحجاج لابد أن تمنى بالفشل . إن الميزة التى أدت إلى نجاحها لا تنتمى إلى الذين شاركوا فيها . بل هى من عند الله الذى أعد لهم طريقهم وأمدهم بالعون العظيم من لدنه . تبدو هذه الومضات من رحمة الله فى هذا النموذج المعروف الذى يسجل فيه برادفورد ماذا حدث للحجاج عندما أصابهم دوار البحر فى وسط المحيط :

« لن أحذف هنا حادثة لها دلالة خاصة على الرعاية الإلهية : كان هناك أحد البحارة الشبان مولعاً بملذات العالم ، منكباً على شهواته ، له من القوة الجسدية ما جعله ممتلئاً بالكبرياء والتعالى والاحتقار للفقراء المرضى لدرجة أنه كان يلعنهم كل يوم بالكلام المصحوب بالبصق ! وطالما عبر لهم عن رغبته فى إلقاء نصفهم من على ظهر السفينة قبل أن ينتهوا من رحلتهم ، وذلك لكى يتمتع بما معهم من زاد ! وكلما حاول أحد هؤلاء تأنيبه برفق لم يلق منه سوى المزيد من السباب واللعنات المرة ! لكن شاءت إرادة الله قبل أن يبلغوا منتصف المحيط أن يصاب هذا الشاب بمرض خطير مات على إثره وعلى أبشع صورة ! هكذا كان أول من ألقى به من على ظهر السفينة . وهكذا سقطت لعناته هو على أم رأسه . عمت الدهشة جميع رفاق الرحلة عند موته ؛ لأنهم اعتبروا ذلك – التنفيذ العادل لقضاء الله فيه . (ص ٥٨) »

لم تكن مثل هذه الأحداث على سبيل الصدفة فى نظر برادفورد : كان عالم الطبيعة عنده

عبارة عن بناء مذهل من الدلالات والرموز والإشارات ، إنه عالم رمزى لا يحتمل وجود أية صدفة حقيقية على الرغم من صعوبة إدراك المعنى العام للتصميم الذى نهض عليه . وفى الصفحة التالية يصف حادثة سقوط شاب تطهرى (بيوريتانى) من على ظهر السفينة معلقاً عليها بقوله : إن إرادة الله شاءت له أن يمسك بحبل لكى يتم إنقاذه . هكذا أظهر الله عنايته بقضية الحجاج التى رحلوا من أجلها . وبوضع هاتين الحادثتين جنباً إلى جنب يحاول برادفورد جعل مغزى إرادة الله أكثر وضوحاً .

إن برادفورد يصر على اختيار الأحداث التى تؤكد فكرته ، وعلى سبيل الاختصار فإنه يقول : إنه قام بحذف الأحداث الأخرى واختيار ما يدل على « الحقيقة البسيطة » التى وعد بتوضيحها فى كلماته الافتتاحية . كان التأكيد على مظاهر الرحمة الربانية والحكم الإلهى من الملامح المثيرة فى كتاب برادفورد بالنسبة لأجيال القراء التى جاءت بعده ، والتى اهتمت بكل ماحذفه برادفورد؛ كما اهتمت بكل ما ضمنه . ومن حين لآخر يهتم المؤرخون المحدثون بالصدق الذى تميزت به هذه الأمور ، لكنهم لم يأخذوها على محمل جاد تماماً .

عندما يقرر برادفورد – بوعى أو بلا وعى – اختيار أو حذف الأحداث والشخصيات فإنه يفعل هذا فى الحدود التى تسمح بها مفاهيمه . معنى هذا أن فهمه لبعض الأمور كان يصل إلى « الحقيقة البسيطة » كما يراها هو ، وليس كما يراها الآخرون .

ويمكننا القول بأن مفهوم برادفورد للإيمان جعله يفقد النظرة المحايدة سواء بالنسبة للأحداث أو بالنسبة لأهميتها فى نظره كما أثر هذا من ثم على نظرته إلى القيم المرتبطة بها . إنه بالنسبة لعصر لم يعد يشاركه فى النظرة نفسها إلى العالم فإن أحكام برادفورد تبدو الآن غير ذات شكل أو موضوع إلى حد كبير ، لكن أمانته فى بلوغها لا يمكن أن تجد من يتحداها ، ويقلل من قدرها .

إن الحقيقة بالنسبة لرجل ذى عقيدة شخصية راسخة وإيمان لا يتزعزع – هذه الحقيقة لا يمكن أن تكون إلا عقلانية : يقول أحد معاصريه : إن الحقيقة التى تهم هنا هى حقيقة العاطفة ، ولا يوجد سوى الأبله الذى يحاول تجاهل عاطفة حب الحقيقة[٩] وإذا كانت نغمة برادفورد تخون تجاوبه العاطفى فى صور شتى – فإنه يسعى فى صوره (ولوحاته) إلى إغراء قرائه بالمشاركة العاطفية فى التجربة : نأخذ على سبيل المثال الفقرة الرائعة التى يصف فيها حالة البؤس والشقاء التى عانت منها مستعمرته الصغيرة عندما استقرت فى أمريكا :

« هنا لا يسعنى سوى أن أتوقف هنيهة ، وأقف شبه مذهول من جراء البؤس الذى يطغى على الحالة الراهنة لهؤلاء القوم ! وأعتقد أن القارئ سيشاركنى فى الإحساس نفسه عندما يقدر الموقف مثلى ؛ فبعد أن عبروا المحيط الواسع وقبله بحر المتاعب والمعاناة من أجل الإعداد للرحلة لم يكن هناك الآن أصدقاء للترحيب بهم ، ولا فنادق لراحتهم وتجديد أجسادهم التى أنهكتها عوامل الطقس ، ولا بيوت أو حتى مدينة يلجئون إليها بحثاً عن العون وقضاء الحاجة .

أما بالنسبة للفصل الذى وصلوا فيه فكان فصل الشتاء . ومن خبروا فصول الشتاء فى تلك البلاد فإنهم يعلمون كم هى قاسية وعنيفة ! وتحت رحمة عواصف بحرية رهيبة ومتوحشة لدرجة أنه من الخطر الرحيل إلى الأماكن المعروفة . ناهيك بكشف الساحل الذى لايعرف أحد شيئا عنه . بالإضافة إلى ذلك فإن عيونهم لم تكن لتقع إلا على برية كئيبة موحشة زاخرة بالحيوانات المفترسة والرجال المتوحشين ! أما عن عددهم فهذا فى علم الغيب . وحيث تنقلوا بعيونهم حولهم – ما عدا النظر إلى السموات – لم يجدوا سوى النذر اليسير من العزاء أو الرضا بكل الأشياء المحيطة بهم .

وبحلول الصيف تجهمت تلك الأشياء بفعل ضربات الطقس التى لا تعرف الرحمة ، وبدت البلاد كلها بغاباتها وأحراجها وكأنها ظلال متوحشة مفترسة ! وإذا نظروا خلفهم فإنهم لا يجدون سوى المحيط الجبار الذى عبروه ، وأصبح الآن الحاجز الرئيس والهوة التى تفصلهم عن كل الأجزاء المتحضرة من العالم . وإذا قيل – إنهم يملكون سفينة يمكن أن يلجئوا إليها – فهذا صحيح . لكن ماذا كان رأى القائد والجماعة ؟ كان عليهم أن يبحثوا عن مكان آخر فى أقرب بقعة ممكنة . لم يكن لهم أى أمن أو استقرار إلا بعد العثور على ميناء آمن يمكن الانطلاق منه وقتما يريدون بلا أخطار يمكن أن تحدق بهم . كان على زعيمهم أن يدبر لهم المؤن التى كانت تنفد بسرعة من أجل أن يقيم أودهم ومن أجل عودتهم إذا حتمت الظروف .

نعم لقد قال بعض منهم : إنهم إذا لم يعثروا على المكان المناسب فى الوقت المناسب فإنهم سيحملون متاعهم ويعودون أدراجهم من حيث أتوا ! دعك من التفكير فى آمالهم الضعيفة فى الحصول على المؤن والنجدة وغير ذلك من الميزات التى تركوها خلفهم . كان عليهم أن يؤقلموا عقولهم مع هذا الوضع المحزن ، وأن يتحملوا الأهوال التى يمرون بها برغم قلة عددهم . حقاً إن أحاسيس الحب التى يكنها لهم إخوتهم فى لايدن كانت دافقة وكاملة تجاههم ، لكنهم لم يكن لديهم القدرة على مساعدتهم ؛ كما كان من المعروف أن طائفة التجار قد حددت موقفها منهم .

لم يكن لهم سند سوى روح الله وعنايته . (ص .ص ٦١ – ٦٣) »

فى هذه الفقرة يصل برادفورد إلى قمته : إنه يهدف إلى الحصول على تذوق القارئ أكثر من إمداده بالمعلومات عن ضائقة الحجاج . إنه يعتمد على لغة مشحونة بالعاطفة والإحساس ؛ يقول مثلا : « القوم البؤساء » ، « لا أصدقاء » ، « عواصف بحرية رهيبة ومتوحشة » ، « فصول شتاء قاسية وعنيفة » ، كما أنه يختار التفاصيل المرتبطة بصميم الحياة الإنجليزية وبقيمها مثل الفنادق والبيوت والمدن والحياة الوادعة المستقرة . إن الطبيعة لم تكن صعبة فحسب ، بل شريرة مؤذية تطل عليهم بوجه متجهم « بفعل ضربات الطقس التى لا تعرف الرحمة » وكم هددهم الرفاق بهجرتهم على حين يقبع أصدقاؤهم فى هولندا عاجزين عن مد يد المساعدة لهم. لابد أن يشعر القارئ بالتعاطف معهم ، ولا يترك برادفورد أية حيلة بلاغية لكى يثير هذا التعاطف مثل بدء الكلمات بالحروف نفسها ، والتوازن بين الجمل ، والمقابلة ، والاستعارة الموحية المؤثرة . فى مثل هذه الفقرات يبدو الوعى الأدبى عند برادفورد على أشده .

ولقد لاحظ كينث ميردوخ فى أسلوب برادفورد «أن تكوينه للجمل لم يكن ذلك التكوين الذى أغرم به الفنان الذى يستمد مادته من الخيال ، ويبحث عن صوره وتراكيبه فى الكتب ، بل كان ذلك الرجل الذى تعودت أذناه الاستماع إلى الحديث العادى الذى يتبادله الفلاحون الإنجليز ، والذى نشأ على تذوق الإيقاعات البسيطة والكلمات المشحونة بأحاسيس الحياة المألوفة العادية . » [١٠] إن هذا التقويم دقيق ، لكن برادفورد ليس هذا فقط ، إنه يملك العين التى تعرض بالتفصيل الدلالة العاطفية الكامنة وراء الأحداث إنه يستدعى من مخيلته على سبيل المثال المعاملة التى تنبأ الحجاج بأنهم سيلقونها على أيدى الهنود المتوحشين الذين « يستمتعون بتعذيب الرجال بطريقة دموية لم يسبق لها مثيل ! إنهم يسلخونهم وهم أحياء بمحارات الأسماك ، ثم يقطعون أعضاء ومفاصل الآخرين قطعة قطعة لشيها على جمرات الفحم ! ويلتهمون لحومهم على مرأى منهم إذ إنهم مازالوا أحياء ! وغير ذلك من أوجه القسوة التى يثير مجرد ذكرها الرعب ! » (ص ٢٦) .

يصف برادفورد الهنود الذين يعانون من الجدرى فيقول : إنهم لا يملكون حتى الملاءات أو الأتيال وغيرها من الأدوات المساعدة. لذلك يقعون تحت وطأة حالة لا تثير سوى العويل على حين أن أجسادهم ملقاة على الحصير الجاف . يندلع الجدرى ويجرى ويلهث من رجل لآخر !

وتتشقق جلودهم من احتكاكها بالحصير الراقدين فوقه ، وعندما يقلبونهم فإن الجلد يتساقط من جوانبهم على الفور ! إنهم ملقون وسط بحر من الدماء اللزجة بحيث يصبح مجرد النظر إليهم الرعب بعينه . وفى النهاية يموتون كالخراف المتعفنة ! » (ص ص ٢٧٠ – ٢٧١) . أو عندما يصف برادفورد الرجل الذى يتضور جوعاً إلى الموت فيقول : إن « ضعفه لم يمكنه من جمع المحار فسقط فى الطين والتصق به إلى أن وجد فى مكانه وقد فارق الحياة ! » (ص ١١٦)

ليست كل تفاصيل برادفورد بهذا الرعب لكنها ترتبط بصورة فريدة سائدة :

هناك الثائر المرح العربيد الذى سكر لدرجة أنه أدخل سيف حارسه فى أنفه !

هناك القس الفوضوى الذى يئس تماما لدرجة أنه كان على استعداد لتقبيل أيديهم لكى يخلصوه من هذا العذاب بالموت !

هناك فراق الأصدقاء الدامع ، والرحيل تاركين الأسرة فى لايدن . إنه مؤلم لدرجة أن من شاهد هذا المنظر من الهولنديين لم يملك نفسه من البكاء ! كل هذه التفاصيل كانت تهدف إلى إثارة العطف والرثاء والأسى والأسف .

إنه ليس من المعتاد أن نتهم برادفورد بالإسراف فى العاطفة لكنه كان مثل معظم التطهريين غير قادر على كبح جماحها ! إن الفساد البشرى وعدم استقرار أحوال الدنيا كانا وراء كل هذه الأحداث الناضحة بمناظر الحزن الفاجع ، كان حجاج برادفورد – وهم يقاسون على شواطئ أمريكا – رمزاً للبشرية جمعاء فى عالم ساقط وزاخر بالخداع والزيف .

يقول بيتر جاى – ولكن ليس بدقة كافية – إن وعى برادفورد بهذه الحقيقة ذات الدلالة الرمزية يكمن وراء هذا الحزن الذى يسود الكتاب كله.[١١] صحيح أن نظرة برادفورد تتميز بالحزن ، لكن انعكاسها على الأحداث التى اختارها ، وعلى النغمة التى كتب بها – لم يكن حزيناً بقدر ما كان مؤثراً ومثيراً . هناك أسى وحنين للوطن حتى فى الصفحات الأولى حيث يتذكر برادفورد صورة جون فوكس عن فترة المحاولة وآلام المخاض إنه العالم الذى يهتم به برادفورد حقاً ، وهو الذى يميز « عن مزارع بلايموث » من غيره من الوثائق التى تقف على قدم المساواة من ناحية الأهمية السياسية والتاريخية . إنه كتاب عن الحب .

إن برادفورد يكتب كأب لجماعته الصغيرة : فهو حاميها وهو الغيور على سلامتها وراحتها . يتحدث الأمريكيون عن أبطالهم الثوريين ، فيسمونهم « الآباء المؤسسين » لكن برادفورد يملك من الأبوة ما يزيد كثيراً على هؤلاء الرجال الطيبين ؛ فقد رفضوا هذا الصفة عن عمد ،

وأوجدوا نظاماً لا يعتمد على الأشخاص ، بل ينهض على القوانين المجردة ذات الكفاية والعدالة التى ترجع أصولها إلى المساواة المطلقة للجميع أمامها . ليست هناك أية تفرقة بين الناس فى مواجهة هذا النظام : فقد تعلم الأمريكيون منذ عام ١٧٧٦ أن الحكومة التى تنهض فقط على النية الطيبة للحكام يمكن أن ينتج عنها الطغيان بالدرجة التى تعمل بها نفسها من أجل المصلحة العامة ، لكن التجربة كانت قد علمت برادفورد شيئاً مختلفاً على أية حال : فقد تجسدت مثله العليا فى قس منشق فى هولندا يدعى جون روبنسون ، وفى صديقه الحميم وليم بروستر الذى كان بمثابة الأب له .

وقبل هؤلاء جميعا كان يرى أن الزعيم هو ظل الله على الأرض ، تماماً مثلما فعل موسى مع بنى إسرائيل ! ولقد عمل زملاء برادفورد من أمثال مايلز ستاندش وتوماس برنس وإدوارد وينسلو على منافسته فى زعامة الجماعة ، لكن أحداً منهم لم يستطع أن يقوم بالدور بكفاية برادفورد نفسها .

كان أول قانون له مسجل كحاكم يدور حول الإجراءات الخاصة بمراسيم الزواج المدنى . أما عن الواجبات الأخرى وخاصة إنزال العقوبات وتنفيذ الإعدام فى المجرمين فلم تكن مهمة سعيدة لبرادفورد على الرغم من أنه قام بها على الوجه الأكمل مع إحساس عميق بأنه يؤدى الواجب ؛ كما كتب بإسهاب عن توماس مورتون الذى أنشأ بيتاً نائياً لإقامته الصاخبة يسمى ميرى ماونت ، وقام بزراعة زهور الربيع ، وأمضى معظم وقته مع الهنود بأسلوب لم يكن يتمشى مع الأخلاقيات الاجتماعية لحجاج بلايموث .

لقد قام برادفورد بالقضاء على مشروعات مورتون بأسلوب عنيف لا يصدر إلا عن التطهريين . وكانت حجته فى ذلك أن مستعمرته أصبحت مهددة بتصرفاته الطائشة التى تمثلت فى بيع المشروبات الروحية والبنادق إلى الهنود . إن الطريق الصحيح واضح كل الوضوح فى تبريرات برادفورد ، لكن المرء يتعجب إلى أى مدى تحكمت الكراهية الأخلاقية التى أحسها برادفورد تجاة مورتون فى سياسته العامة ! هل كانت حقاً البنادق والخمور هى التى هددت برادفورد ؟ أو هل كان الرقص والغناء وتجارة الفراء الناجحة إلى حد ما هى التى أدت إلى نفى مورتون ؟ لقد نفذت السياسة نفسها مع القس المرائى جون ليفورد : فبعد وصوله بفترة وجيزة ضبط ليفورد متلبساً بنشر الإشاعات التى تسىء إلى الحجاج ؛ وخاصة فيما يتصل بأسلوبهم فى الممارسة الدينية . وكانت خطاباته إلى إنجلترا تهدف أساساً إلى تخريب مجهودات الحجاج .

وقد تمكن برادفورد من ضبط هذه الخطابات وهى مبحرة إلى إنجلترا ، وكانت الأساس الذى أقيمت عليه محاكمة ناجحة أدين فيها ليفورد بشدة ؛ لكن ندم ليفورد الدامع لم يدم أكثر من شهرين ؛ مما أدى إلى ترحيله إلى سالم ثم إلى فرجينيا حيث مات !

وإذا كانت هجماته السياسية والدينية هى السبب المباشر الذى أدى إلى طرده من بلايموث فإن مغامراته الجنسية الفاضحة كانت السبب الواضح الذى أدين على أساسه أو على حد قول برادفورد كانت السبب فى المعاملة غير الكريمة التى تلقاها على يدى الحاكم .

بالنسبة لبرادفورد فإن أشخاصاً من أمثال مورتون وليفورد لا يمكن أن يقفوا على قدم المساواة مع الآخرين . إنهم فى نظره أقل مرتبة من البشر ؛ لأنهم هبطوا إلى مستوى الحيوانات فى معاملاتهم ؛ لذلك لا يستحقون المعاملة التى يتلقاها نفسها الآخرون – الذين هم أفضل منهم – من الحكومة ، لكن برادفورد لم يكن قانعاً بهذا التبرير حول أسلوب معاملتهم ، بل أراد أن تبرر الأجيال المقبلة أفعاله أيضاً . إن محافظته على الوثائق والمذكرات والخطابات ذات الدلالة ، كما أن إصراره على إدخال بعضها فى التاريخ ذاته – ليدل ذلك على إيمانه بالاحترام الأمريكى للكلمة المكتوبة ، وبالحس الإنجليزى العريق الذى يتيح لكل الأطراف أن تعبر عن نفسها . وحتى قبل أن يترك جماعة الحجاج سفينة « ماى فلاور » عند وصولهم إلى أمريكا – ألزموا أنفسهم اتفاقاً مكتوباً يبلور السياسة المدنية العامة على سبيل مواجهة أحاديث الرفض التى تحض على التمرد ، بهذا عبروا عن إيمان عجيب بقدرة الاتفاقيات المكتوبة بين الناس على الإتيان بالنتائج المرجوة .

لم ينس برادفورد ذكر الجانب النظرى لمثل هذه العقود فى الصفحات الأولى من كتابه ، لقد تفاوض الحجاج من أجل الحصول على موافقة الملك جيمس على مغامرتهم على الرغم من أن بعضهم كان يعتقد أن ختم الملك غير ذى موضوع قائلين « إنه إذا كان هناك فيما بعد سبب أو رغبة فى إدانتهم – فعلى الرغم من امتلاكهم خاتماً قد يتسع ليشمل أرضية المنزل كله – فإنه لن يؤدى أية خدمة فى هذا المجال .

كان لابد من إيجاد وسائل جديدة سواء تمشت مع هذا الخاتم أو عارضته . ، وطالما ان طريقهم كله كان قائماً على الاحتمالات – فلم يكن أمامهم سوى الاعتماد على العناية الإلهية ، كما فعلوا من قبل فى مجالات أخرى . » (ص . ص ٣٠ – ٣١) . هذا الاعتماد المطلق على الرعاية الإلهية كان الخاصية المميزة لكل المعاملات بينهم . وأحيانا وقع الحجاج ضحية

الاستغلال كما حدث لهم من جراء الإنجليز الذين قاموا بجمع الأموال لرحلتهم الأولى ، مثل وكلائهم روبرت كاشمان وإيزاك آلرتون ، ومثل الكابتن توماس ويستون الذى كان يشكل المصدر الرئيسى للإمداد ، وأخيراً ، ومع الأسف الشديد جيمس شيرلى الأمين على خزانتهم . ولم تنفعهم اتفاقياتهم المكتوبة بشىء . وفى أحيان أخرى كان هناك ما يبرر ثقتهم فى اتفاقياتهم المكتوبة . ولم تكن سفينة « ماى فلاور » سوى دليل على صحة هذه الاتفاقيات .

من بين هذه الوثائق التى تثرى السرد – لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من الانفعال والتأثر بإصرار الحجاج على قيم الحق والعدالة والصراحة والوضوح . ولقد انعكس معظمها على مزاج برادفورد . إن سياسته – كما تكشفها هذه الوثائق – تعتمد على النظرة الحكيمة للأمور أكثر من تميزها بالعناد والصلابة . إنه ليس من القادة الذين يصعب التعامل معهم حتى عندما يعترف أنه احتفظ ببعض الأمور سراً بحيث لم يعرف الذين حكمهم عنها شيئا . إننا نلحظ قدرته على الاستيعاب المستمر للخبرة من خلال حلوله العملية لمجموعة متنوعة من المشكلات الديبلوماسية الشائكة . ونكتشف أيضا أن سنوات المنفى قد منحته بصيرة ثاقبة فى الأساليب التى تتبعها المجتمعات والأفراد على حد سواء . وكانت تجربة اقتسام عائد الإنتاج والسلع بين الناس بلا تفرقة ، وهى التجربة التى فرضت على المستوطنين فى بداية الأمور فى بلايموث – قد فشلت ؛ لأنها زرعت الشك بين المقتسمين ، ولم تقدم أى حافز يؤدى إلى المجهود الفردى ؛ لذلك كان سعيداً عندما ساند الحل الرأسمالى الناجح الذى علق عليه بقوله :

« إن التجربة التى طبقناها فى حياتنا العامة سنوات عدة وعلى أيدى رجال متزنين ويخافون الله – هذه التجربة سعت إلى تعرية غرور فكرة أفلاطون وغيره من القدامى الذين وجدوا تأييداً فى الأزمنة الأخيرة لادعائهم الذى ينادى بأن نزع الملكية وتوزيعها بين أفراد المجتمع على المشاع سيجعلهم أكثر سعادة وازدهاراً ، كما لو كانوا أكثر حكمة من الله عز وجل . » (ص . ص ١٢٠ – ١٢١) . ويبدو فى الملاحظة الأخيرة انطلاقٌ فى العاطفة قد يتعذر على الأمريكيين المعاصرين أن يتمشوا معه .

ولقد أوضحت من قبل أنه مع وصول مستوطنى خليج ماساتشوستش عام ١٦٣٠ ، أى فى العام الذى بدأ فيه برادفورد كتابة « عن مزارع بلايموث » – كان يكتب عن موضوع اكتملت معالمه ، واتخذ صورته النهائية .

استمرت مذكراته السنوية بانتظام حتى عام ١٦٤٦ بدون أى تعليق من عنده وإذا تتبعنا

مذكراته فى عام ١٦٣٠ فسنجد أن قصة المستعمرة فى بداياتها الأولى لم تكن مجرد سلسلة من المتاعب والاضطرابات ؛ فقد أدى النجاح إلى جلب المزيد من المستوطنين ومعهم النظام الاقتصادى والمدنى الأكثر تعقيدا . تزايدت المنافسة من أجل الأرض والتجارة فى حدة متصاعدة ، وكان كل هذا على حساب بلايموث .

تصاعد أيضاً رفض الهنود لغزو أراضيهم ، وبينما استطاعت قوات الاحتلال المشتركة أن تقمع ثورة البيكود بسرعة فى عام ١٦٣٧ ، فإنه سرعان ما خفتت حدة التهديد بالحرب ضد قبائل الناراجانستس الأقوياء فى عام ١٦٤٥ . وكان النجاح الذى حققه الإنجليز فى خليج ماساتشوستس بالإضافة إلى تكوين اتحاد مستعمرات نيوإنجلاند الفيدرالى فى عام ١٦٤٣ قد منح بلايموث مزيداً من الأمن ، لكن على حساب تمتعها بالحكم الذاتى النابع من إرادتها .

وكمثل الأب الذى طعن فى السن فإن برادفورد رأى أسرته وهى تتحول تدريجا عنه : بعضهم رحل من العالم مثل وليم بروستر ، وبعض رحل للبحث عن ظروف معيشية أفضل ، وهناك أيضا من تصرف تصرفاً بلا مبرر مثل إدوارد وينسلو الذى تولى حكم بلايموث لبعض الوقت ؛ فقد كانت رحلته إلى إنجلترا ممثلا لبلايموث بمثابة التعليق الأخير فى كتاب برادفورد عندما يقول : « لقد ظل هناك أطول مما كان متوقعاً وبعد ذلك شغل بعض المناصب هناك ؛ والآن ظل غائباً أربع سنوات : مما أدى إلى إضعاف حكومتنا التى لم يستأذنها فى الحصول على هذه المناصب التى تولاها » .

وإذا كانت هذه الكلمات مغلفة بالأسف فإنها ليست مريرة ؛ إذْ أضافت أربع سنوات إلى المذكرات بعد أن توقف برادفورد عن تسجيلها بانتظام ، وأكدت لنا أن الحاكم الطاعن فى السن راجع كتابه من حين لآخر .

عند موت وليم بروستر . كتب يقول :

« لابد أن أذكر شيئاً عن حياته فإن الكلمات المقتضبة ليست أسوأ من الصمت المطبق » . ثم يقدم نبذة تذكارية عن صديقه ومعلمه . لكن الآن وبعد رحيل وينسلو فإن الصمت ساد كل ما عداه من كلام . إنه الصمت المشحون بأحاسيس الرثاء ؛ لأن برادفورد كان مدركاً منذ بداية كتابه أن حجاج سفينة « ماى فلاور » لن يكونوا سوى أحجار عثرة بالنسبة للآخرين فى سبيل القيام بالعظيم من الأعمال » (ص ٢٥) . فإذا كان إيمانه قد علمه أن الحجاج قد تميزوا بالتعالى الروحى والأخلاقى ، لأن الله قد خصهم برحمته وعنايته ، فقد منحه هذا الإيمان

أيضاً إحساساً بالإذعان والاستسلام ليس لحتمية القدر أو الزمن ، بل لإرادة الله . وهذا النوع من الإذعان يتميز بالهالة البطولية .

هناك أيضاً ذلك التناسق الرمزى الذى يمنح الكتاب شكله النهائى ، والذى اهتم به برادفورد على أساس أنه القيمة الحقيقية الباقية له . وبعد موته فى عام ١٦٥٧ تداول المخطوط المؤرخون حتى فترة الثورة الأمريكية عندما اختفى فى الوقت الذى رفضت فيه بعنف كل افتراضات برادفورد عن الله والإنسان والمجتمع والحكومة . ولم يكتشف الكتاب مرة أخرى إلا فى عام ١٨٥٥ عندما وجد فى قصر فولهام التابع لأسقف لندن ، وطبع كاملاً لأول مرة فى عام ١٨٥٦ : أى بعد ما يقرب من مائتى عام من موت مؤلفه وفى ليلة اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية العظمى . وهى الحرب التى كان لها من الدلالة ما يزيد على مجرد وضع المبادئ الدستورية موضع الاختبار . لقد زادت من وعى أمريكا بمبادئها الأولى ومعتقداتها المبكرة ، وفى السنوات التالية بالنجاح والاتحاد المؤكد وأصبحت دراسة وليم برادفورد «عن مزارع بلايموث» جزءاً لا يمكن تجاهله أو إنكاره من ذلك الوعى . لقد ترسخ إحساس برادفورد بالهدف ، وحيويته ، وعدالته ، واهتمامه المستمر ، وروحه العملية ، بل حتى أخلاقياته المستقيمة ، وإحساسه بالمهمة التى أرسله الله من أجلها إلى أمريكا ، لقد ترسخ كل هذا فى أعماق الشخصية الأمريكية .

ملاحظات

١ – السيرة الكاملة الفريدة لبرادفورد نجدها فى كتاب برادفورد سميث «برادفورد رجل بلايموت» (نيويورك ، ١٩٥١) ، أما أحسن سرد لحقائق حياته فنجده فى مقالة صامويل إليوت موريسون فى «القاموس الأمريكى للسيرة الذاتية» .

٢ – كل أعضاء الكنائس الانفصالية فى ذلك الوقت كان يفترض فيهم القداسة ؛ لذلك أطلق عليهم لقب «القديس» ، أما الأعضاء الذين لم يدخلوا مذهب الجماعة بعد – بما فيهم الخدم والأجراء – فكانوا يسمون «الغرباء» .

٣ – أحدث سرد لانهيار مستعمرة برادفورد وتحللها النهائى نجده فى كتاب جورج د . لانجدون «مستعمرة الحجاج : تاريخ بلايموث الجديدة ١٦٢٠ – ١٦٩١» (نيوهافن ، ١٩٦٦) . فى تلك الفترة كانت المستعمرة قائمة بذاتها ، وفى عام ١٦٩١ فقدت كيانها الذاتى واستقلالها السياسى عندما اندمجت فى ماسا تشوستس .

٤ – فى وثيقة بعنوان «تاريخ بداية وتطور المزارع الإنجليزية التى نمت فى بلايموث فى نيوإنجلاند» وموقعة باسم «ج . مورت» اختصاراً لجورج مورتون – أصبحت معروفة بعد ذلك باسم «تاريخ مورت» .

٥ – «عن مزارع بلايموث ، ١٦٢٠ – ١٦٤٧» إعداد وتحقيق صامويل إليوت موريسون (نيويورك ، ١٩٥٢) ، ص ٣ . وكل المراجع التالية فى هذه المقالة من تلك الطبعة . أحسن طبعة قام بنشرها ورثينجتون س . فورد فى جزأين «تاريخ مزارع بلايموث ١٦٢٠ – ١٦٤٧» (بوسطن ، ١٩١٢) ، لكنها حملت معها كل أخطاء برادفورد فى هجاء الكلمات وتقسيم الجمل ، لذلك لم يكن هناك داع لإعادة هذه الأخطاء فى هذه الطبعة .

٦ – إنه يحدد هذه الدراسات الدينية ذاكراً إياها بالاسم فى فصوله الافتتاحية مضافاً إليها أعمال المؤرخين الآخرين سواء كانت دينية أو زمنية . وبالنسبة لرجل فى موقعه هذا كانت قراءاته قد أصبحت متشعبة ومعقدة فى الوقت الذى بدأ فيه كتابة «عن مزارع بلايموث» .

٧ – كان الرجال الإنجليز الذين كرسوا حياتهم لخدمة الكنيسة بصرف النظر عن المذهب قد غرقوا حتى آذانهم بين المجلدات الكثيرة التى اشتهر بها القرن السابع عشر ، وزخرت بالنصائح عن كيفية تحويل العذاب والألم إلى ميزة . يمثل هذا النوع من الكتابات كتاب فينياس فليتشر «بهجة المعاناة أو عزاء الأرواح المعذبة» (لندن ، ١٦٣٢) وكتاب ستيفن جيروم «بهجة المعاناة أو الصبر على الشدائد وكيف تشق حياتك فى الطريق الضيق» (لندن ، ١٦١٣) . ينصح هذا الكتاب بأن «العذاب هو مكنسة لكنسنا ، تجربة لاختبارنا ، عصاً لقيادتنا ، نجم لهدايتنا ، مرشد لقيادتنا بحيث لا يستطيع أى شىء أن يبعدنا عنه ، هو الذى صنعنا وعلى استعداد لاستقبالنا ، ويملك القدرة على خلاصنا» . (ص٨) .

وكان من الكتب التى أوضحت اتجاه ومعنى هذا النوع من الكتابة كتاب ثيودور بيزا «صلوات البيت» (لندن ، ١٦٠٧) ، وصلوات جون برستون العشر المعروفة بعنوان «التواضع» (لندن ، ١٦٣٧) ، وكتاب لويس بايلى السنوى ذو الشعبية الكبيرة «ممارسة التقوى» (لندن ، ١٦١٣) . ولابد أن برادفورد قد تأثر بهذا الفكر السائد ، لذلك فإنه ضمنه التاريخ الذى سجله عن عمد .

٨ – الفصل الرابع ، المشهد الثالث ، من السطر العشرين إلى الثالث والعشرين .

٩ – وليم فينر ، «الأعمال الكاملة» (لندن ، ١٦٥١) ص ٩١ ، مات فينر عام ١٦٤٠ .

١٠ – «الأدب وعلوم الدين فى مستعمرة نيوإنجلاند» (نيويورك ، ١٩٤٩) ص ٨١ .

١١ – «ضياع السيادة : المؤرخون التطهريون فى المستعمرات الأمريكية» (بيركلى ، كاليفورنيا ، ١٩٦٦) ص ٤٩ .

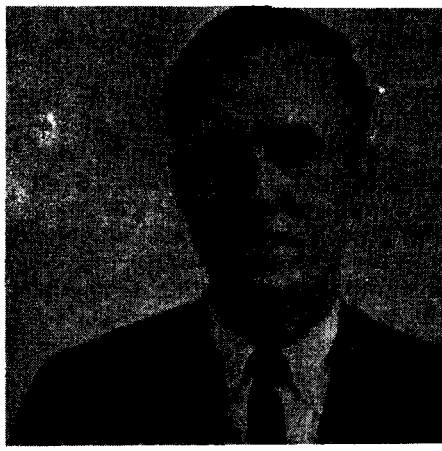

رالف ل . كيتشام

عمل رالف ل . كيتشام أستاذاً فى الدراسات الخاصة بالحياة الأمريكية ، والشئون العامة ، والعلوم السياسية فى جامعة سيراكيوز منذ عام ١٩٦٥ . حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم الاجتماعية من سيراكيوز عام ١٩٥٦ . وكان قد تلقى دراسة صيفية فى جامعة أوكسفورد عام ١٩٥٠ . وفى الفترة ١٩٥٣ – ١٩٥٦ اشتغل محاضراً فى شئون المواطنة والقومية فى سيراكيوز . وفى الفترة ١٩٥٦ – ١٩٥٩ عمل الدكتور كيتشام باحثاً مشاركاً فى العلوم السياسية فى جامعة شيكاغو كما شارك فى إعداد وتحقيق «مذكرات بنجامين فرانكلين» .

وفى عام ١٩٦٥ اشتغل محاضراً فى الدراسات الخاصة بالحياة الأمريكية فى جامعة طوكيو .

وبنهاية عام ١٩٦٦ كان أستاذاً زائراً فى مدرسة خريجى شئون الباسيفيك فى جامعة ولاية نيويورك . فى ألبانى .

وفى عامى ١٩٦٧ – ١٩٦٨ كان أستاذاً زائراً فى جامعة تكساس بمدينة أوستن .